

علماء ومفكرون عراقيون

محاتر العجزي

عثمان العسيلي

دار الشروانك للنشر والتوزيع

www.dawahmemo.com

الْمُقْبَلَةِ تَلَكَ الشَّجَاعَةِ بِهَا وَتَلَوْلَهَا
مُهُورَةٌ مِنَ الْرَّوَادِ لَمْ يَلِدْ إِنْ أَسْعَى النَّفَاقَ
هَذَا وَلَكِنْ سُورَهُ طَلِمْ يُحِيدُهُ نَفَاقَ رَفِعَا
لَهُ دَفَارَهُ دَلِيلَ حَقِيرًا الْحَالَ هَهُ
رَأَكَاهَا يَضْعُجُ مِنْ يَطْلُعُ عَلَى عَالِيِّ الرِّسَالَهُ
وَشَعَادَ شَدَّ الدُّنْسَهُ تَنْظُرَهُ مَازَ الْمُغَبَّرَهُ اِنْ يَقَافَهُ
نَفَاقَ النَّبِيِّ
بَرْطُوسَ وَبَرْنَاهِيَا وَبَقِيَ الْبَهُورَهُ مَا نَافَعَوْا هَهُ
عَلَى زَلَكَ تُونِيَّهَا عَنْهَا وَهَمُوسَهُ دَلَّهُ
بَهَّ حَالَ فِي سَاسَهُ الرَّاهَهُ خَدُولَهُ هَهُ

٧

الشَّيْخُ عَمَّارُ الْمُحَمَّدُ الْعَسَلِيُّ

هو شيخ أرواد - الجزيرة الفينيقية مقابل طرطوس على الساحل السوري - و كبير علمائها فيها نعم وما بلغنا من العارفين والرواة ، وكان مولده حوالي العام ستين وثمانمائة وألف للميلاد ، وكانت وفاته على التحقيق عام تسعة وأربعين وتسعمئة وألف .

لم يعقب من الأبناء سوى بنات ثلاث ، لذلك عرف باسمه دون كنيته . وقد ولد ونشأ وشاح وتوفي في جزيرته تلك ، وب بيته من أوسط بيتهـا مكانة .. كان والده من كبار تجار أرواد ، أيام كانت أرواد هي المركز التجاري لجزء كبير من الساحل السوري وما وراءه ، لأنها مجمع السفن التي كانت وسيلة النقل الكبرى طوال حياة الشيخ ، وكان جده لأبيه من مشايخ الجزيرة ، وكذلك والد جده . أما والدته فمن آل حمود الذين توارثوا العلم الشرعي ، وتتالوا على الدراسة في الجامع الأزهر . ومن هنا كان اتجاه الشيخ عمار في طريق العلم تأثراً بسلوك أسرته الكريتين .

ثقافته :

حفظ القرآن في كتاب أحد شيوخ أرواد ، ثم أقبل على مبادئ العربية والعلوم الدينية يتلقاها عن أحد أجداده لأمه من آل حمود . ولما بلغ السن المساعدة على الاغتراب شخص إلى مصر ليتحقق بالأزهر ، ولكنه لم يتمكن من البقاء هناك سوى بضعة أشهر ، إذ توفي والده وترك له أسرة هو أكبر المسؤولين فيها ، فعاد إلى أرواد ليسد الفراغ الذي خلفه والده . ومع نقل التبعات التي كان عليه أن يتحملها ، لم يستطع الانصراف عن سبيل الدراسة التي استهواه واستقطبت مواهبه ، فقضى في متابعتها بنشاط لم تلبث آثاره أن بورزت في دروسه وخطبه وعمله في القضاء الشرعي .

شاء الله أن أتعرف الشيخ عن كثب ، وأن نتذاكرون في بعض الأمور المتعلقة بالعلم ، وبخاصة ما يتصل منها بعواقب المبشرين بالنصرانية في ظل الانتداب الفرنسي ، فألفيت لديه حيوية أفقدها في الكثير من الشباب المعنين بالعلم والأدب ، وأعجبني منه بوجه خاص سعة ثقافته التي لا تقف عند حدود المعلومات الدينية ، بل تمتد منها إلى مختلف فروع المعرفة ، من لغة وأدب وتاريخ وطبيعيات .. وما إلى ذلك مما ينم عن تتبعه للكثير من رواد الثقافة العصرية ، في دقة تمكنه من الأخذ والرد ، والتفريق بين الحقائق والأباطيل .

قبل الاحتلال :

قضى الشيخ رحمه الله معظم عمره المديد في ظل السيادة الإسلامية ، قبل أن تفاجأ أرواد ببعض قطع الأسطول الفرنسي تفرض عليها سلطانها عام ١٩١٥ لتتخذ منها قاعدة انطلاق ، تغير منها على الساحل ، الذي ظلل في قبضة الجيش العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وبذلك أتيح له أن يلمس طلائع التحول الخطير الذي طرأ على حياة الناس فيسائر البلاد ، التي خرجت في سهم الفرنسيين من الشام تنفيذاً لمؤامرة (سايكس بيكو) .

عاصر أولًا ذلك الرخاء الذي قيض لأرواد بسبب مركزها البحري ، الذي جعل من سكانها كتلة من النشاط الملحي والتجاري ، منذ عهود الفينيقين ، فسفونهم ترود مختلف سواحل المتوسط حاملة منها وإليها أصناف البضائع ، وقد ازدهرت فيها صناعة السفن ، من الصغيرة المعدة للزينة ، إلى الزوارق المبنية لمواصلات المحلية ، إلى الكبيرة الصالحة لارتياد الآفاق .. إلى التخصص في حرفة الغطس على الإسفنج ، التي ينصرف إليها نفر غير قليل من الفتيان الأشداء ، منقطعين إلى نشان موطنهم من أعماق البحر في رحلات تستغرق الأشهر ذات العدد .

ومن هذا وذاك يأتي التحرك التجاري الذي أشرنا إليه في ما تقدم .

وطبيعي أن وسطاً كهذا من شأنه أن يفتح المواهب ، ويدفع إلى الاهتمام بالعلم المساعد على ضبط العمل ، وتحديد الواجبات ، ومعرفة ما لا يستغنى عنه مسلم من مبادئ الدين ، ولا سيما إذا تذكرنا ضيق المساحة التي تتألف منها تلك المضبة البحريّة التي سماها الأقدمون « أرادوس » وما يفرضه هذا الضيق من أغراض معينة من السلوك الاجتماعي يتذرع الخروج عليه . ومن هنا كان للشيخوخة مكانتهم في الجزيرة ، وكان للعلم قدره ووقاره في نفوس السكان من قطانها ، ولعل ذلك من أهم الأسباب التي وفرت لأرواد الاحتفاظ ببطائقه من أهل العلم وطلابه قل نظيرهم في البر المقابل حتى نهاية الربع الأول من القرن العشرين .

ولقد كانت هذه الأوضاع ، مضافة إلى موحimates البيئة العائلية ، آثارها البارزة في أخلاق الشيخ وسائر تصرفاته . إذ كان كثير الورق ، طويلاً للأدة ، لطيف العشر ، لا يمنعه خلق الجد من التبسيط مع تلاميذه وأصدقائه إلى الحد المعقول ، وربما نظم بعض مزاحه لهؤلاء في أبيات يتتسابقون إلى حفظها فتقروي صلتهم به وتشدد من روابط المودة فيما بينهم .

بعد الاحتلال :

وجاءت المرحلة الثانية - عقب الاحتلال الفرنسي - فقدت أرواد كثيرةً من مزاياها الأولى ، فمن الناحية الاقتصادية جدت أخطار الغواصات سفنها تتحرك إلا في حدود جد ضيقة .. وحيل بينها وبين الساحل ، الذي هو سوقها الطبيعي ، فلا تحصل على الضروريات إلا عن طريق التقني الذي فرضه المحتل . واضطر غير قليل من شبابها النشط إلى العمل في خدمة المستعمر ضد أبناء دينهم في العدو المواجهة ، حيث أخذوا يغيرون معه على الشواطئ لانتزاع ما يمكن من الغنائم ، ولو أدى ذلك ، وكثيراً ما أدى ، إلى الصدام المسلح ، الذي لم يخل من سقوط القتلى والجرحى بين الجانبيين .

وهكذا سلبت أرواد ذلك الرخاء الذي طالما نعمت به ظله ، وانتهت إلى وضع من الحرج والقلق لم تألفه ولم تتوقع مثله قط ، يضاف إلى ذلك ما جره الاحتلال الأجنبي من تطور في الأخلاق ، لا يتفق مع ماضي الناس في هذه الخلبة الحية العاملة من ديار الإسلام في الشام .

غيره وانتصار :

وتحقيقاً لمباديء الحضارة الغربية ، المتحدرة من وثنية روما وأثينا ، كان لا بد لهؤلاء المئات من جنود فرنسا في أرواد أن يجدوا كل المرفهات والمسكنات . ولذلك فكر (ترابو) - حاكم الجزيرة العسكرية الفرنسي - في تأمين أولى هذه (الضروريات) وهي إقامة دار للبغاء يرثادها جنوده للتنفس من ضفط الكبّت . ولكن الفكرة لم تلبث أن تسربت إلى أوساط الأرواديين الذين استقبلوها بختلف المشاعر . وكانت أشد ما تكون وقعاً على الشيخ عثمان ، الذي كان يوصفه قاضي أرواد الشرعي ، والمستشار الشرعي في المحكمة المدنية التي أنشأها الفرنسيون عقيب الغزو ، كان أكبر السكان مسؤولة تجاه الأخلاق والدين الذي يعتبر بنظرهم مثله الحق بل الوحيد .

وهنا تحرّكت غيرة الشيخ الإسلامية ، وتحرّكت معها مواريث العزة التي اكتسبها من أهل بيته . ولعله تذكر ساعتئذ موقف أحد أصوله من مشابخ آل حمود . وقد بلغه ذات يوم أن رجلاً من المستخفين بفضائل المجتمع يتعاطى المخر علانية ، فما كان منه إلا أن قصد إليه ، وحطّم قارورته على رأسه ، دون أن يستطيع هذا جواباً أو دفاعاً ، على الرغم مما عرف عنه من الشراسة . وكان ذلك درساً طهراً أرواد من رجس المخر إلى حين .

وجمع الشيخ على رأيه بعض أعيان الجزيرة ، ثم مضى على رأسهم إلى الحاكم (ترا ابو) يقدمون احتجاجهم على ذلك الأمر ، ولكنه نظر إليهم من خلال منصبه وقوته ، فردهم معلناً تصميمه على التنفيذ ، فلم يبق أمام الشيخ سوى التحول إلى القيادة العليا القائمة في بور سعيد ، يرفع إليها احتجاج البلد واستنكار الشريعة لهذا الخرق . ولم يجد (ترا ابو) مناصًا من الإفصاح لش��وي الشیخ فسمح للبرید بحملها ، وأتبع ذلك بتذليل خاص من شأنه أن يلقاها كلّها ، ذلك أنه استعان ببعض الضعفاء والنفعيين من سكان الجزيرة ، فوقعوا عريضة يؤيدون بها محاولةه ، وبعث بها إلى القيادة العليا . ولبث الفريقان ينتظران عاقبة شکویهما .. ولقي الشيخ الكثير من المضايقات بسبب من موقفه هذا ، إذ وقف مرتبه ، وصودر بریده ، وأحيط بالمراقبة المزعجة .

وذات يوم فوجئت أرواد بزيارة الجنرال (بيوت) القائد العام ، إذ خرج من مقره في بور سعيد بحولة تقليشية . وانتهز (ترا ابو) هذه الفرصة فمحشد الأنصار المؤيدون له ، ودفعهم إلى مواجهة القائد ، وإبلاغه موافقتهم على مسعى الحاكم العسكري ، الذي يرون فيه خدمة للبلد وحماية لأعراض الناس ! ..

وما إن علم الشيخ بالمؤامرة حتى انطلق مع إخوانه إلى مقر الحاكم يطلبون مواجهة الجنرال . بيد أن الحارس حال بينهم وبين الباب ، ورفض إبلاغ طلبهم إلى المسؤولين .. فلم يبق إلا الدخول بالقوة . وهكذا انتهى الشيخ القاضي إلى المكتب الذي فيه القائد العام ، ومعه رئيس البلدية ، وقدم إليه نفسه وزميله ،

وبادره بعرض الأمر في لجة أشعرت القائد بأهميته .. وسرعان ما أدرك هذا أن الحكم قد غشى بإبعاد الرجلين عنه، والاكتفاء بأولئك المؤيدين له من لا وزن لهم في المجتمع الأروادي .

والظاهر أن الجنرال كان على قدر من الحنكة لم تتوافق لذلک المتغطرس ، فلم يفرغ من مقابلة الشيخ ورفيقه إلا بعد أن أكد لها تحقيق ما طلباه . وهكذا غادرا مكتبة منتصرين .

علم ورياضة :

والحديث عن نشاط المترجم في خدمة العلم متسع الجوانب يمكن اختصاره بكلمة صغيرة هي أنه كان واحداً من بقایا السلف في هذا المجال . لا يدع فرصة تفوته في إبلاغ الخير والحق إلى كل ذي استعداد لها .

كان رحمه الله مدرسة مفتوحة لكل طالب في أي وقت وفي أي مكان ، ففي حجرته الخاصة من المسجد الغربي بأرواد يحتشد حوله المختارون من ذوي النباهة والرغبة في العلم ، فيقبل عليهم بطشه وتواضعه ووده الصادق ، في دروس منتظمة من القرآن والتفسير والحديث والقواعد العربية ، وما يتصل بها من علوم البلاغة .. وللعلامة من دروسه حصص خاصة في الأحيان المناسبة ، يتلقون خلالها ما هم أحوج إليه من شؤون دينهم وعبادتهم ، وما إلى ذلك مما يساعدهم على تنظيم حياتهم اليومية .

وكان الناس على اختلاف مشاربهم في أرواد تعلق قلبي بالشيخ ، يعبرون عنه بكل مظاهر الاحترام والتقدير . وكثيراً ما يخرج في صحبة المقربين من تلاميذه إلى البر ، في مواسم الربيع والصيف يستمتع معهم بنزهات رياضية تعود على كل منهم بما لا يقدر من السرور والفائدة .

ولعل ما يذكر في صدد نشاطه العلمي اهتمامه العميق بالتطبيقات الشرعية في الأحكام التي يصدرها ، وقد ظهر ذلك في القضايا التي يصدر فيها مقرراته ،

فيستأنفها بعض المحامين إلى المراجع العليا ، فلا تثبت أن تعاد مؤيدة بتصديق
القضاء الذين أحيلت إليهم . وإنما يدل هذا على مدى عنابة الشيخ رحمه الله
بهذا الجانب المهام من فقه الأحكام .

تألیف :

أما عمله تعمده الله برحمته في نطاق التأليف فمحدود لا يتجاوز بعض رسائل في الرد على بعض المبشرين ، وفي قواعد العربية ، إلى جانب بعض البحوث التي لم تطبع ، ولم نقف منها على أثر عند تسطير هذه الترجمة .

وأول ما عرفت فضل المترجم أحسن الله جزاءه عن طريق رسائله في الرد على مبشر بروتسانتي متصر من سكان الجبل ، وقد كتبت أيامئذ رسالة في الرد على ذلك المضل تحت عنوان « فضائح المبشرين » . وكان لرسائله هذه أثر طيب في قلوب أهل العلم من المسلمين في مختلف المدن السورية ، إذ وجدوا فيها تفريجاً عن كروهم يازراء تلك الحملات المسعورة ، التي يشنها أولئك السفهاء على الإسلام ورسوله صلوات الله وسلامه عليه في ظل الحياة الفرنسية ، التي تضيق عليهم في بلادها ، وتغدق عليهم ألوان التأييد والعون في بلادنا .

وَمَا يَحْسِنُ ذِكْرَهُ تَسْبِيْلًا لِّأَثْرِهِ، أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِحِجَارَهُ، أَنَّهُ كَانَ يَتَوَلَّ تَأْلِيفَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ وَالْإِنْفَاقَ عَلَى طَبْعَهَا وَتَوْزِيعَهَا بِالْجَمَانِ عَلَى مُخْتَلِفِ الْأَنْهَاءِ.

والناظر في مضمون هذه الرسائل يدرك المدى الذي بلغته ثقافة الشيخ ،
والعناية بتتبع كل ما يكتب في الموضوعات التي يريد إنشاءها . وقد أخبرني
بعض تلاميذه أنه كان يتخد هذه البحوث مصنفاً خاصاً يودعه كل ما يقع عليه
منها في الكتب أو المجلات أو الصحف .

ويؤسفنا أن مكتبة الشيخ قد عبّرت بــها الأيدي حقاً لم يبق منها إلا ما فاتها ، ولذلك اكتفينا من الكلام عنه بما نعلمه وما نقله عن الأكثـر علمـاً منـا به .

نماذج من منشوره :

المخطوط الوحيد الذي أتيح لنا الوصول إليه من آثار المترجم هو كتيب يقع في ما يقارب منه صحفة من القطع المتوسط ، وقد انتزعت عدة صفحات من أوله وآخره ، وهي تتطوّي على أصول بعض الرسائل التي كتبها في الرد على المبشر الذي أشرنا إليه . وها نحن أولاً ننقل منها بعض الأسطر .

١ - يقول رحمه الله في بعض كلامه عن رسالة محمد ﷺ :

« من المتواتر الذي لا شبهة فيه أنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب كما قال تعالى : « وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب ولا تحظى به يمينك . إذاً لارتاب المبطون » نشأ بين قوم ليس لهم كتاب ولم يعهد استغاثتهم بالعلوم والفنون كغيرهم من الأمم ، فلا كليات ولا مدارس ولا فلاسفة ولا حكماء ، ولم يغب عن قومه مدة يتيسر له فيها تحصيل العلوم . بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ، وحبب إليه مكارم الأخلاق من صغره . لم يعهد عليه كذب ولم يعرف عنه سوء ، حتى دعاه قومه بالأمين (كما يبشر به يوحنا إصلاح ١٩ عدد ١١) ثم أتى قومه بعلوم و المعارف لم تكن بينهم معروفة ، وأبان عن كثير من المسائل التي لم تصل إلىها أفهم الحكماء ، وأتى بشرع مبين لم يغادر من الأحكام صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وجاء بدين حوى من المحسن في المعاملة مع الله ومع عباده أقصاها ، مكنته الله في الأرض ، وأظهره على الأديان كلها . فمن نبذ التعصب وترك التقليد وطرح الأوهام والمعالطات التي يوردها الأعداء ، وطلب الحق لذاته ، وفكر في حاله صوات الله وسلامه عليه ، وما أتى به .. جزم يقيناً أن هذا الصادق الأمين المستقيم الأحوال ، الذي يلعن الكاذبين ، ويدنّم المفترين ، ما كان ليفترى على الله الكذب ، وهو يدعوا إلى توحيد الله وتقديسه وتجيده ، وحتم قطعياً أنه رسول الله حقاً ، وأنه لم يصل إلى هذه الدرجة العلياء ولم يتحقق ذلك النجاح العظيم إلا بحمد من الله وتوفيق منه سبحانه » .

٢ - وفي مفتريات المبشر كلام عما يتناقله العامة والمتصوفة في موضوع النور الحمدي من مثل قول بعض المؤذنين « يَا نُورَ عَرْشِ اللَّهِ .. » وقولهم إن الله خلق الخلق من نور محمد .. فيعقب الشيخ على تلك المفتريات بقوله :

« لم يرد لهذا النور ذكر في القرآن المجيد ولا الأحاديث المواترة فلا يجب علينا اعتقاده ، قال تعالى : « قل إِنَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيْنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ » .. فمحمد ﷺ بشر مثلكم لا فرق بيننا وبينه بشيء إلا بالرسالة .. هذا ما يجب على المسلم اعتقاده ، وما عدا ذلك من النور ، وما يذكر في بعض قصص المولد فهو غير قطعي الثبوت » .. ثم يضيف إلى ذلك أن مرد هذه الأخبار إنما هو الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة ، ويقارن بينها وبين أشباهها من الأخبار الخرافية التي تتضمنها كتب النصارى وأساطير الفرس .. وهو بذلك إنما يعبر عن طريقته في النقد العلمي ، الذي لا يقبل من الأخبار إلا مما صح سنه ومتنه .

٣ - وعلى دأب المبشرين في التقاط الأخبار الكاذبةأخذ المضلل المأفوون قصة أم المؤمنين زينب ، فجعل يلوح بما أضاف إليها الأفواكون من المفتريات للإساءة إلى مقام الرسالة .. وفي هذا الصدد يقول ، رحمه الله ، ردًا لهذا الأفلاك :

قال تعالى : « فَلَمَّا قُضِيَ زِيدٌ مِّنْهَا وَطَرَأَ زُوْجُنَاكَهَا لِكِيلًا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرْجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَأً » .. وهذا نص صريح في أن الله تعالى أباح لرسوله ﷺ تزوج مطلقة زيد ليعلم المؤمنون أن تزوج نساء الأدعية حلال لا حرام كما كان عرب الجاهلية يعتقدون ، جاعلين الابن الجازى كالحقيقي في الأحكام افتداء من عند أنفسهم لا بشرع من عند الله .. وإنما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بفعل ذلك ، ولم يكتف بالقول لأجل أن يقتدي به المؤمنون ، ولا يحجموا عن ذلك بالنظر للعادة الراسخة ،

كما أحجموا في غير هذه الحادثة حقاً ابتدأ بالفعل فاتبعوه^(١) .. هذا ما يجب على المسلم اعتقاده وهو عين الحكمة والصواب ، وما ينسب إليه عليه عزّلهم من حب لزيتب فهو محض افتراء عليه من أعدائه » .

ولا جرم أن هذا هو عين اليقين لا ما ذهب إليه بعض المتنطعين الخمين من السابقين واللاحقين .

٤ - ويزعم المصلل المأفوون أن كتبهم أصل ماء الحياة وأن القرآن (مورد معكر كدر) فلنستمع إلى زرأة الشيخ في تفنيد هذه الأبطولة الحميرة : « إن هذه دعوى يدعى بها كل أصحاب كتاب لكتابهم ، ولكن الميز النقاد هو العقل السليم والوجدان النقي .

لماذا كان القرآن مورد ماء معكر؟ .. الكونه يفتقد العقائد الفاسدة ويدهض الصلالات الوثنية ، ويختوي على مكارم الأخلاق ، وينهى عن قبائحها !

أم لكونه يعلم أن الله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له ولا ابن ولا أب ، وأن عيسى عليه السلام ممحض عبد من عباد الله .. وأن طريق الخلاص هو الاعتقاد بالتوحيد الحق والأعمال الصالحة واجتناب السيئات ؟

أو لعل القرآن كان مورد ماء معكر مقدر لكونه لا يعلم بأن المسيح نصفه إله ونصفه إنسان ، كما كان الوثنيون من الهندوس واليونان والرومان يقولون عن عظمائهم ؟ !

أو لكونه لا يعلم أن الإله حباً بسود عيونكم قدم ولده ذبيحة بشريية عنكم ، كما كان الصينيون يقدمون أولادهم ذباائح بشريية لأهليتهم ؟ !

أو لكونه لا يعلم أن أبناء الله الملائكة تزوجوا ببنات الناس ففسقوا ، فلم يحفظوا رئاستهم فقيدوا بقيود أبدية تحت الظلام عند نهر الفرات ؟ !

(١) يشير الشيخ بذلك إلى امتياز الصحابة عن الحلق يوم الحديبية حتى حلق فحلقوه .
(المؤلف)

أو لكونه لا يعلم أن الإله خاف من الناس لما بنا برج بابل فنزل إلى الأرض وببل الأسمائهم وفرق كلمتهم ؟ !
أو لكونه لا يعلم أن الإله صارع يعقوب فلم يقدر عليه حتى فلَّ حق فخذه ،
وجهل اسمه فلم يعلمه حتى سأله عنه ؟
أو لكونه لا يعلم أن القديسين قاموا من قبورهم ودخلوا المدينة أفواجاً
ليخلصوا الإله من الصلب والقتل ؟ !
أو لكونه لا يعلم أنه حدثت حرب في السماء بين ميخائيل وملائكته
وإبليس وجنوده ؟ !
أو لكونه لا يعلم أن الخلاص ينال ب مجرد الإيمان بأن إنساناً منذ أمد مديد
قتله أعداؤه وصلبوه ؟ !

إن الكتب التي تعلم هذه التعاليم الفاسدة ، وتحتوي على هذه الضلالات الواضحة ، هي المورد العكر الكدر القذر من نجسات عقائد الوثنين وخرافاتهم ، لو أنكم يا أعداء الإسلام تتصرفون » .

وكان في الوسع أن نمضي مع هذه الضربات الدماغية أكثر لو استوعبنا تساؤلات الشيخ كلها ، وفي ما نقلنا منها ما يكفي للدلالة على سمعة علمه بيهات تلك الكتب ، التي تنطوي على كل هذه المفارقات ، وتظل مع ذلك موضع تقديس أهل الكتاب .

وجريدة بنا ، ونحن نطالع هذا التقرير المجلل ، أن تذكر الظروف السياسية التي نشر فيها ، أيام كان التبشير محمياً بحراب الجيوش الفرنسية ومرتزقتها ، ولم يكن قد مضى إلا القليل على تحديات الجهلة من النصارى ، الذين اخذوا من ظروف الاحتلال فرصتهم لتجريح مشاعر المسلمين ، ومحاولة إذلالهم ، إذ اقتحموا أحياهم في تظاهرات مثيرة تتقدمها الصليبان والط gio .. وبخاصة في طرطوس ، التي كانت أول بقعة من البر الإسلامي وطشتها قدم الاحتلال من القطر الشامي .

وحين تستحضر تلك الظروف نحسن تقويم الشجاعة التي تحلى بها ذلك الشيخ الوقور في نشره مثل تلك الردود الصريحـة . ولكن هذا من حقه أن يذكرنا كذلك برحابة صدور الفرنسيـين الذين لم يبدوا أي محاولة لخنق هذا الصوت الشجاعـ، فلم يمحظروا على آلة طبع هذا الكلام ، ولم يوعزوا إلى بريـد بالامتناع عن نقلـه إلى مختلف البلدان !

ولا أرى تجاوزـ هذا المقطع قبل أن أشير إلى أثر ذلك التكـرار في جـمالـ الحوار .. فهو أسلوب من التعبير لا يغـيـ فيـهـ الخبرـ عنـ الإـنـشـاءـ، لأنـ فيـ كلـ اـسـتـفـهـاـ منهـ صـدـمةـ أـشـبـهـ بـالـصـفـعـةـ عـلـىـ وـجـوهـ المـفـتـرـينـ، تـجـعلـهـمـ يـخـجلـونـ لـوـ كـانـواـ يـعـقـلـونـ..

نماذج من منظومـهـ :

ولقد أسلفـناـ الاـشارـةـ إـلـىـ مـارـسـةـ الشـيـخـ لـلـشـعـرـ، وـنـضـيفـ الآـنـ إـلـىـ ذـلـكـ أـنـ هـذـاـ الشـعـرـ لـاـ يـعـدـ الـمـحاـولـاتـ الـتـيـ عـرـفـتـ لـدـىـ الـشـايـخـ .. فـقـدـ أـدـرـكـناـ العـدـيدـ مـنـ هـؤـلـاءـ رـحـمـهـمـ اللـهـ وـكـلـهـمـ يـقـومـ بـهـذـهـ الـحـاـولـةـ، عـلـىـ تـفـاوـتـ فـيـ مـقـدـارـ الـاجـادـةـ. وـلـلـشـيـخـ الـمـتـرـجـمـ مـقـاطـعـ مـنـ الـمـنـظـومـ يـكـنـ اـعـتـيـارـهـ مـنـ أـشـعـارـ الـمـنـاسـبـ الـعـارـضـةـ.

قامـ بـعـضـ الـفـتـيـانـ بـتـمـثـيلـ الـمـسـرـحـيـةـ التـارـيـخـيـةـ «ـ كـسـرـىـ وـالـعـربـ »ـ الـتـيـ تـرـوـيـ بـعـضـ مـآـثـرـ السـلـفـ، فـأـرـتـاحـ الشـيـخـ إـلـىـ عـمـلـهـمـ، وـرـأـيـ أـنـ يـشـجـعـهـمـ عـلـىـ المـفـيـ فيـ هـذـهـ السـيـلـ كـوـسـيـلـةـ لـتـوـعـيـةـ النـاسـ وـتـذـكـرـهـمـ بـاـضـ تـوـشـكـ التـغـيـرـاتـ الـطـوارـىـ، أـنـ تـحـوـيـ أـثـرـهـ مـنـ أـذـهـانـهـمـ، فـبـعـثـ إـلـيـهـمـ بـهـذـهـ الـأـبـيـاتـ :

إـنـ الـعـظـيمـ كـرـيمـ الـقـوـمـ سـيـدـهـ مـنـ كـانـ الـوـطـنـ الـمـحـبـوبـ نـفـسـاـعـاـ
بـذـالـ كـلـ نـفـيـسـ فـيـ حـبـتـهـ لـكـلـ دـاعـ إـلـىـ الـأـوـطـانـ مـمـتـاعـاـ
.. شـكـرـاـ لـكـمـ يـاـ شـبـابـاـ مـثـلـواـ فـبـداـ
أـيـامـ كـنـاـ مـلـوكـ الـأـرـضـ تـرـهـبـنـاـ
هـيـاـ انـهـضـواـ يـاـ شـبـابـ الـعـربـ وـاـرـجـعـواـ
مـرـحـىـ لـشـعـبـ عـزـيزـ النـفـسـ مـتـحدـ مـنـ أـجـلـ أـوـطـانـهـ الـأـرـوـاحـ بـيـاعـاـ

ولا أستبعد أن يكون الشيخ قد تعمد سلوك هذا الأسلوب البسيط لبلاغ
أفكاره واضحة إلى هؤلاء الشباب ، الذين كانوا وأمثالهم في البلاد السورية عصب
العمل في مضائق المستعمر ، بعد أن تحطمت أسلحة المجاهدين له في دمشق
وجبل الزاوية وبقية مناطق الثوار .. وفي ترديده لكلمة وطن وأوطان والجند
والاتحاد ، رموز فقدت اليوم دلالتها ، وكانت أيامذاك هي اللغة التي تحرك
الضمائر وتهيئ السرائر .

ومن إخوانياته الظرفية هذان البيتان اللذان يخاطب بهما أحد الصيادين من
تلמידيه ، وقد فارقه صقره فأحزنه :

لا تكثرنْ أسفًا على الصقر الذي قد فر خوفاً من نبال الراشق
من كان صياداً ينبل لحاظه لا يأسفنَ على ذهاب الباشق

رحم الله الشيخ عثمان العسيلي وعوض أرواد عنه من يسد فراغه من أهل
العلم والشجاعة والأخلاق .